الفكر الاقتصادي الطبيعي

المدرسة الطبيعية وبداية التأسيس لليبيرالية وبوادر التفكير العلمي والبحث عن القوانين الطبيعية

ظهر الفكر الطبيعي كرد فعل للتيار التجاري من حيث رفض المبادئ الأساسية للتجاريين وفلسفتهم الاقتصادية، التي تقوم على أفكار اعتبرها الفزيوقراط ساذجة بل ولم يرحبوا بها تماما كفكرة تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، حتى في الشق التجاري منه، فهذا التدخل يصعب من المنافسة ويقيدها ويؤثر سلبا على النشاط الزراعي والصناعي. ومع تزايد التضخم في أوروبا وعجز الفكر التجاري عن حله، كان لابد من تجديد فكري ينبني على الأسس السابقة وينتقدها ليطورها، فظهر الطبيعيون كحتمية طبيعية لتطور الفكر البشري.

كما أن سيادة الروح الفكرية العلمية في القرن الثامن في مختلف العلوم الطبيعية كالفيزياء والفلك وغيرها أثر على الاتجاه الفكري الاقتصادي ودفعه نحو المنطقية والتفكير بواقعية بصيغة أكثر علمية بعيدا عن الفلسفات اللاهوتية، فقد اتجه المفكرين لمحاولة ربط المجتمع الإنساني بقوانين طبيعية وتشبيه بجسم الإنسان وتطبيق قوانين وظائف الجسم على الجماعات الإنسانية.

1-أهم المنطلقات الفكرية للطبيعيين

1- يشير مصطلح الطبيعيون أو الفزيوقراط (Physiocrates) إلى مجموعة من المفكرين ينتهجون منهجا معينا في تحليل الظواهر، ومنها الظواهر الاقتصادية. وفيما يتعلق بالاقتصاد يشير المصطلح إلى مجموعة من المفكرين الذين ظهروا في فرنسا وتركزوا بصفة خاصة في النصف الأخير من القرن الثامن عشر (18م) وكان لهم نهجهم في التحليل، كما كانت لهم آرائهم المميزة والخاصة في الموضوعات الاقتصادية، ويؤسسون تحليلهم على فكرة القانون الفطري، ويتكون من عنصرين:

- **القانون الطبيعي**: الذي يعني السلوك المنظم أو السوي للأحداث الطبيعية.
- **القانون الأخلاقي**: ويعني القاعدة التي تحكم السلوك الإنساني والتي تتلاءم مع النظام الطبيعي، وهو بهذا أكثر القوانين تميزا للعنصر البشري.

وهكذا تكون الفكرة الرئيسية في النظام الطبيعي أن المجتمع الإنساني يكون محكوما بالقوانين الطبيعية التي لا تكون قابلة لأن تستبدل بقوانين موضوعة. وقد رتب الطبيعيون على وجود هذا

القانون منع تدخل الدولة في سير الحياة الاقتصادية، وحق الفرد في أن يتمتع بثمار ملكيته وحرية العمل.

2- وضع أسس المذهب الفردي: وفي هذا الصدد نستطيع القول إن الفلاسفة الانجليز كان لهم إسهامهم البارز في تأصيل الجانب الفلسفي والسياسي من المذهب الفردي. في مقابل أن الطبيعيين الفرنسيين كان إسهامهم وضاح في تأصيل الجانب الاقتصادي لهذا المذهب لأنهم هم الذين صاغوا العبارة المشهورة: **دعه يعمل، دعه يمر**، وهي العبارة التي لخصت الحرية الاقتصادية التي سادت المذهب الفردي، والطبيعيون هم الذين نادو بالحرية غير المشروطة للتجارة الخارجية.

3- كان الفزيوقراط أول من قسم لمجتمع إلى طبقات استنادا إلى دور الأفراد في العملية الإنتاجية، وبالتالي تم تقسيم المجتمع إلى المنتجين (الفلاحين وعمال الأرض)، والثانية هي الطبقة غير المنتجة كالحرفيين والصناع وعمال الخدمات...

4- تنشأ ثروة الأمم في عملية الإنتاج وليس في عملية التبادل، كما كان يعتقد التجاريين، وعليه ارتبط مفهوم الإنتاج بالعمل الدي يخلق ناتجا صافيا جديدا وليس تحويلا للمادة من شكل لآخر أو مجرد جمع للذهب.

5- قسم الطبيعيون النشاط الاقتصادي إلى فئتين نشاط تحويلي لا يساهم في خلق الثروة ونشاط منتج يساهم في خلق الثروة وأهم هذه الأنشطة هي الزراعة، وبالتالي ارتبط مفهوم الثروة عند الطبيعيين بالأرض، وعليه فالضريبة تفرض على النشاط الزراعي باعتباره النشاط الوحيد المنتج.

2-الأفكار الاقتصادية لفرانسوا كيناي (1694-1774)

وللفيزيوقراط أي الطبيعيون قدم السبق في وضع الكثير من المفاهيم والنظريات الاقتصادية ويعود الفضل لفرانسوا كيناي في وضع القوانين الاقتصادية والتي بين فيها:

1- يرى كيناي أنه في ظل النظام الطبيعي (نظام الفيزيوقراطية)، تكون أسعار السلع الصناعية أعلى من أثمان المواد المصنوعة منها وذلك بنسبة ما يستهلكه العمل المخصص لها من نفقة. وعلى ذلك يجب أن تكون الأسعار على أساس نفقة العمل. وقد مهدت هذه الأفكار الطريق لنظرية الاقتصاديين الكلاسيكيين

2- قسم فرانسوا كيناي المجتمع إلى ثلاث طبقات:

- **الطبقة المنتجة**: تشمل العمال الزراعيين الذين يقومون على خلق الناتج الصافي وهو الزراعة.
- **طبقة الملاك العقاريين**: هؤلاء وإن لم يكونوا منتجين بالمعنى المتقدم إلا أن الطبيعيين أعطوهم أهمية خاصة وبذلك احتلوا مكانا وسطا بين طبقة المنتجين والطبقة العقيمة.

- **الطبقة العقيمة:** تشمل ذوي الحرف الأخرى غير الزراعة، ويدخل فيها العاملون في الصناعة والتجارة وكان كيناي يعتبر هذه الطبقة عقيمة طبقا لنظريته في الإنتاج الصافي حيث إنها لا تضيف إلى الإنتاج الصافي كما هو الحال في الزراعة.

3- يفترض فرانسوا كيناي عدة فرضيات لإعطاء صورة مبسطة لتوزيع الناتج القومي على الطبقات ومنها، أن الانتاج يكرر نفسه وعلى نفس المستوى، وجود نظام لإيجار الأراضي ووجود مستأجر رأسمالي ويدفع لأصحاب الأراضي ريعا. ولتبسيط الصورة يتجاهل كيناي تبادل السلع بين الطبقة الاجتماعية الواحدة ويؤخذ المجموع العام لعمليات البيع والشراء ومن خلال هذه الفرضيات انطلق فرانسوا كيناي لكي يوضح في نظريته (الجدول الاقتصادي) وهي أول نظرية ظهرت على مستوى الفكر الاقتصادي في أوروبا.

إن الأسلوب الذي اتخذه فرانسوا كيناي هي نظرية الدورة الاقتصادية أو الجدول الاقتصادي في عام 1758م ويحاول فيه اعطاء صورة مبسطة لتوزيع الناتج القومي بين الطبقات الاجتماعية المختلفة في المجتمع، حيث يصور التدفق الدائري للسلع والنقود وعدم وجود ادخار يتم استثماره لزيادة مستوى الانتاج، والجدول الاقتصادي هو أول عمل تحليلي منظم لتدفق الثروة وهو اساس الاقتصاد الكلي، وقد اعترف المفكرين الذين جاءوا من بعده بذلك.

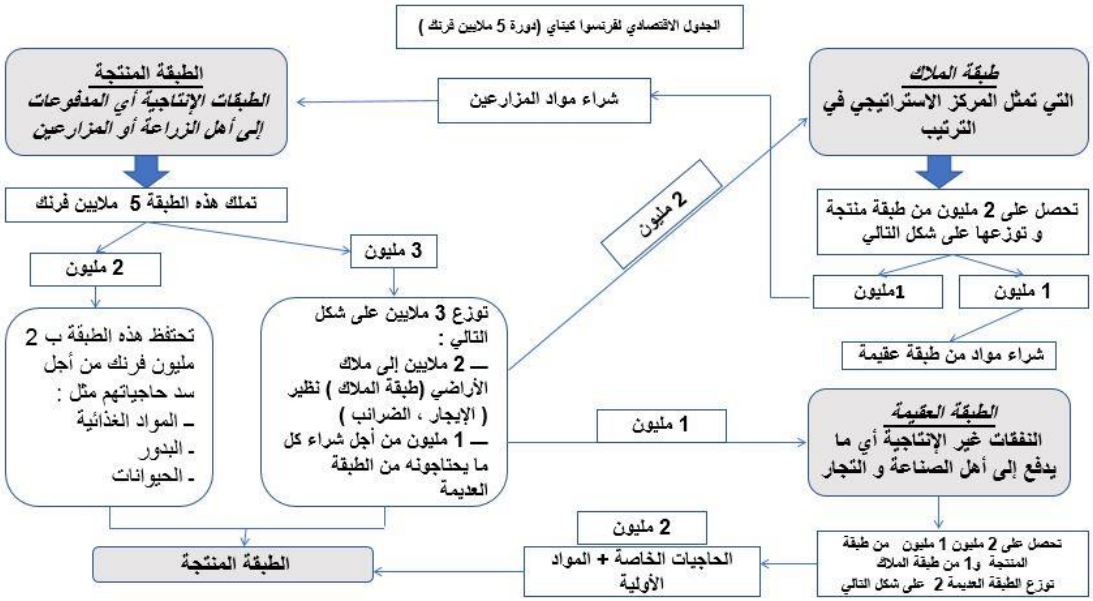

يقوم الجدول الاقتصادي ببيان تداول الإنتاج الصافي بين هذه الطبقات ولبيان ذلك استخدم كيناي أمثلة حسابية لتبسيط عرض هذه الدورة، حيث افترض أن الزراعة تنتج ما قيمته 5 مليار فرنك وافترض أن العمال الزراعيين يحتفظون بـ 2 مليار فرنك لواجهة نفقاتهم الخاصة على المنتجات الزراعية وسداد تكلفة الإنتاج الزراعي أما الـ 3 مليارات المتبقية فإن دورتها تتم على الوجه التالي، ينفق العمال

الزراعيون مليارا من الفرنكات لشراء منتجات من الطبقة العقيمة على شكل سلع صناعية وخدمات تجارية كما يقومون بدفع 2 مليار من الفرنكات لطبقة الملاك نظير مليكتها.

وتقوم طبقة الملاك بدورها بتوزيع دخلها من الزراعة_ 2 مليار _ بأن تنفق بعضها على شراء السلع الزراعية والبعض الآخر على شراء سلع وخدمات من الطبقات العقيمة. فتنفق مليارا من الفرنكات لشراء سلع زراعية ومليار آخر على السلع والخدمات من الطبقة العقيمة. وبذلك يجتمع لدى الطبقات العقيمة 2 مليار فرنك أحدها من الزراعيين والآخر من الملاك، وتقوم هذه الطبقة بإنفاق دخلها على الزراعة لشراء ما تحتاج إليه من السلع الزراعية. وبذلك يعود من جديد كل قيمة الإنتاج الزراعي إلى طبقة المنتجين. وهكذا تتم دورة الناتج الصافي بأن تعود إلى النقطة التي بدأت منها.

4- قسم كناي رأس المال إلى ثلاثة أجزاء:

- رأس المال المادي "**السلع الإنتاجية**"
- رأس المال المستخدم في الأعمال السابقة لعملية الإنتاج مثل مشروعات الري وإصلاحات الأراضي أو بما يسمى برأس المال الاجتماعي.
- رأس المال المتداول وهو ما ينفق من رأس مال للحصول على المواد الأولية ومسلتزمات الإنتاج.

5- **نظرية القيمة**: يمكن أن نلمس مساهمة فرانسوا كيناي في تحديد القيمة، من خلال تحليل دورة المنتج الصافي التي عرضها من خلال الجدول الاقتصادي، حيث حدد بعض العناصر الموضوعية التي تدخل في تحديده، ومنها: قدرة السلعة على إشباع الحاجة، وسهولة الحصول عليها، وندرتها... ويطلق على القيمة التي تتحدد بناء على ذلك بالقيمة المقدرة.

3-تقييم عام للفكر الاقتصادي عند الطبيعيين

نستنتج في ضوء ما تم عرضه أن علم الاقتصاد السياسي بالشكل الذي نعرفه حاليا، قد وضعت أسسه وعناصره في القريين السابع عشر والثامن عشر.

- أثبت الطبيعيون من خلال طريقتهم في التحليل الاقتصادي تفوقا وتميزا عن باقي المدارس و الاتجاهات التي سبقتهم، فمن خلال اعتمادهم على المنهج التجريبي، وتحديد مهمة الباحث في اكتشاف القوانين الموضوعية التي تحكم التفاعلات الاقتصادية، ساهموا في بلورة ملامح علم لاقتصاد السياسي، بل يذهب البعض –كما سلف الذكر، إلى اعتبار فرانسوا كيناي مؤسس علم الاقتصاد السياسي الحديث.

- ينسب للطبيعيين الفضل في وضع منهج البحث في الاقتصاد بالشكل الذي نبحثه الآن. ذلك أنه في هذه الفترة أصبح التحليل الاقتصادي يأخذ بالمنهج الموضوعي وذلك بعد أن كان يأخذ بالمنهج المعيار. وهكذا يكون منهج البحث في علم الاقتصاد قد وضعت أسسه في فترة الطبيعيين.
- نظرية كيناي حول دوران الناتج الصافي اعتبرت من أهم الأعمال التنظيرية للطبيعيين، نظرا إلى ما قدمته هذه النظرية من إضافة في أدوات التحليل، حيث يكشف تحليل كيناي عن ارتباطه بالتوازن، ونعرف أن موضوع الاقتصاد في إطار النظام الرأسمالي يكاد يكون دراية في التوازن، سوء أكان توازنا على المستوى الكلي أم توازانا على المستوى الجزئي.

بالرغم من إسهامات الطبيعيين في جعل الاقتصاد كعلم و معرفة منظمة يخطوا خطوات هامة و حاسمة نحو الأمام، غير أن أعمالهم شابتها بعض النقائص، التي فتحت بابا واسعا للانتقادات، وأهمها:

- بالرغم من إدعاء الطبيعيين الموضوعية في أبحاثهم غير أنهم لم يخفوا بعدا اجتماعيا و ذاتيا في نظرياتهم الاقتصادية، فمنتقديهم يعتقدون أن الطبيعيين عكفوا على إعطاء الزراعة أهمية كبيرة مقارنة بباقي الأنشطة الأخرى ليس لأنها النشاط الاقتصادي المنتج الوحيد فقط بل أس السبب في ذلك هو رغبتهم في تبرير دخل للملاك العقاريين الذي يحصلون عليه دون عمل من جانبهم.
- كما ان نظريتهم حول القيمة يشوبها الغموض والخطأ، فنظرا لكون الطبيعيين فشلوا في الوصول إلى فكرة أو معيار "المنفعة" في تعريف الثروة، فقد عجزوا عن تصور أن الصناعة أو التجارة (نشاط الطبقة العقيمة)، يمكن أن يكونا منتجين كذلك، لأنهما وإن اقتصرا على تحويل المواد إلا أنهما يضيفان منفعة جديدة تبرر اعتبارهما منتجين.
- كما أن التطورات التي عرفتها أوربا مع ظهور الثورة الصناعية مع نهاية القرن الثامن عشر فندت الكثير من فرضيات الفيزيوقراطيين حول اعتبار الزراعة النشاط المنتج الوحيد القادر على تحقيق الرفاهية والتقدم للمجتمعات.